# دراســـة الطفل

## من الوجهة النفسية الحديثة

للاستاذ فؤاد طرزي المحامي

بعد بحث وتنقيب دام حوالي النصف قرن قدمت لنا صورة عن طبيعة سلوك الطفل تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي قدمها لنا الباحثون القدماء في ميدان التحليل النفسي . فقد قدم لنا العلماء المحدثون القواعد الأولى التي بنيت عليها الدراسات الجديدة ، وإن النقاط الرئيسية التالية تلخص وجهات النظر الحديثة في ميدان الدراسات العلمية التجريبية ، فعلم النفس الحديث يقول :

١ — إن الطفل تركيب عضوي حي نام يتطور على شكل تحولات وتغيرات متتابعة في الدقة من الخلية الأولى إلى التكوين العضوي المعقد الذي يؤهل الفرد للعمل وفق مستويات الراشدين . وفي ميدان هذا النمو والتطور يشرح العلماء خصائص الأعمال والتكوينات الجديدة ، وعناصر التغيرات التي تتناول الحجم والشكل والتركيب ، وصفات التغيرات التي تتناول مستوى الفعاليات وأوجه النشاط . كما أنهم يبحثون أيضاً في المبادئ الأساسية التي تحلل أساليب هذا النحو المستمر وأحواله وهذه الفعاليات النشطة .

٢ — إن الطفل وحدة حية مستقلة بنفسها ، تعمل بمفردها عملا مغلقا إزاء المواقف التي تواجهها . وهذه الخصائص الجزئية التي يتميز بها السلوك تحتاج إلى تأكيدات خاصة . وتثبت العلوم الكيماوية والفيزيولجية بأن الوحدات المنظمة تستطيع أن تنقسم إلى أجزاء متشابهة ، وهذه الأجزاء تنقسم إلى أجزاء أصغر منها ، وهكذا باستمرار . وبمقتضى هذا فإن القوانين التي تحكم هذه الوحدات المنظمة ستستمر في عملها بنوع من الدقة والتماثل بنتج أعمالا منسجمة متحدة . وبما أنه لا الطفل ولا سلوكه يتجزآن هذا التجزؤ نفسه ، فقد وجدت الصعوبات في ميدان التحليل العلمي للطفل من هذه الناحية ، لأن كل الوسائل النفسية والأساليب القياسية التي استعملت لتحليل السلوك إلى وحدات نموذجية معينة قد اقتصرت على الأعمال التي يقوم بها التركيب العضوي بمجموعه . ولهذا السبب عندما نتكلم عن الذاكرة وعن التعلم وعن العاطفة ، فإنما نتكلم عن أعمال سلوكية مستقلة صنفت وفق قواعد التماثل والتشابه ، لأن هذه المظاهر ليست ظاهرة قائمة بذاتها ، ولكنها جمعت مع بعضها لخصائصها الجوهرية المماثلة ، فكل نشاط يمكن أن يصنف تحت عدد من المراتب المختلفة ، فإنما نفعل ذلك تسهيلا لأهمتنا العلمية . ولهذا فإن نفس السلوك الواحد يمكن أن يصنف كإحساس أو كذكرة أو كعاطفة أو كذا كرة — الخ . وهذه الوحدة في قوى النشاط الطفولي تستعمل إجراءات تبدو شاذة ولا تتصل اتصالا مباشراً بالعلوم البيولوجية

٣ — إن الطفل يعيش في محيط لا يتميز هو نفسه لا بطابع الوحدة ، ولا بمظاهر البساطة ، ويعمل باستمرار مؤثراً على سلوك ونمو الطفل . وإن نماذج الدوافع الفعالة تأتيه من خارج محيطه ، وبعد ذلك — بصورة غير مباشرة — وبواسطة دفع ذاتي فيه ، يختار من بين مظاهر محيطه ما يناسبه ويوافقه . ويظل هذا التبادل المشترك بين الكائن البشري وبين المحيط الاجتماعي الطبيعي مستمراً في جميع الأوقات .. وبما أنه قد يحصل نوع من التثبيت والتوقف في النمو ، فإن صنفاً من السلوك يتشكل ويتحدد ، وإن النماذج النوعية السلوكية تتطور في ميدان البواعث المتحركة وفي ميدان النظام الذاتي الخاص . وإن بعض هذه البواعث تصبح بواعث محركة منتجة بسبب تأثيرها على مجرى النمو بالتجارب العلمية وبالعلاقات الاجتماعية مع الآخرين ، بينما تبقى بواعث غيرها غير ذات تأثير ، لأنها لم تؤثر في هذه العلاقات المتشابكة المتبادلة . وأما لماذا تصبح بعض البواعث مؤثرة ، وتبقى غيرها غير مؤثرة ، فإن هذه مسألة لم يبت فيها نهائياً في الدراسات النفسية الطفولية.

٤ — إن الطفل يبقى خاضعاً لعملية نمو مستمرة متتابعة ، لا ترتد إلى الوراء ولا تقف . فلا يمكن للبيئة ولا للعلاقات الطبيعية والاجتماعية أن تظهر مرة ثانية بنفس الشكل الذي ظهرت فيه في مرة سابقة ، وذلك بسبب تجدد النمو وتجدد العلاقات المشتركة المتبادلة . إن السلوك في أية لحظة من اللحظات هو ثمرة تاريخ الطفل وتعبير عن باعث مؤثر معاصر .

وعلى ضوء هذه القاعدة ، فإن دراسة الأسباب المفردة والبسيطة يجب أن تستبدل ويستعاض عنها بدراسة البواعث المتعددة ، والعلاقات المتبادلة ، والتأثيرات النامية المتراكمة .

المشاكل النفسية للطفل :

ينقسم منهج العالم الذى يبحث فى المشاكل النفسية للطفل إلى قسمين رئيسيين مختلفين من ناحية البحث والعمل . فهو يبحث أولا عن قواعد عامة ، أو مبادئ تنطبق على نماذج وأشكال كثيرة تعين على فهم السلوك وعلى السيطرة عليه والتكهن بمداه ونتائجه . وفى هذه العملية يتناول بحثه :

(أ) أعمال الكائن الحى الآلية ، أو ما تسمى النوازع الذاتية الأصلية للكائن الحى نفسه التى توجه أعماله توجيهاً مستقلا عن أى تأثير خاص بسببه شخص معين أو بيئة معينة .

(ب) التأثيرات التى يؤثر بها الكائن الحى على البيئة التى تحيط به ، أو ما تتركه الكائنات الحية من مظاهر خاصة على العالم الخارجى الذى حولها .

(ج) التأثيرات التى تؤثر بها البيئة على الكائن الحى ، ودراسة كيف يمكن تغيير السلوك وتكييفه بتغيير وتكييف البيئة التى ينمو بداخلها الكائن الحى .

وأما القسم الثانى ، فيتناول تفسير وشرح الظواهر ، وهما الأمران اللذان يتمثلان تمثلا رئيسياً فى عدد من العلوم . فالعالم النفسى يحاول أن يفسر عملية النمو نفسها بنماذج متقاربة ومفهومة ، إذ يشمل عمله أولا أن يضع القواعد العامة المشتركة بين جميع الأفراد . وفى هذا المجال توجد طائفتان من القواعد :

(أ) قواعد النمو التناسلى أو التكوينى المتعارض أو المتقاطع .

(ب) قواعد النمو التناسلى أو التكوينى الطولى .

ثم يقوم ثانياً بمهمة شرح وتفسير وفهم السلوك الفردى بحثاً عن الوحدة العامة بين أنواع السلوك . وفى هذا المجال يجب التمييز أساساً بين أمرين :

(أ) ترتيب الأفراد حسب مستواهم .

(ب) شرح حالة الفرد شرحاً يتناوله كوحدة جامعة .

أعمال الكائن الحى الميكانيكية :

فى كل نظام من الأنظمة تنجز فيه الأعمال بمجموعها ومتحدة نتائج معينة فى مرحلة وزمن معينين يفترض العلم بأن هذا النظام يقوم على مبادئ منطقية ، وأن هذه المبادئ تعمل مستقلة استقلالا يتفاوت كثرة وقلة عن المجهودات الآلية للكائن الحى ، وعن تأثيرات البيئة التى تحيط بهذا الكائن ، وأن هذه المبادئ تعمل بصورة ميكانيكية مختلفة ومتعددة وفى بيئات مختلفة ، فإذا عرفنا هذه المبادئ فهمنا سلوك الأفراد واستطعنا السيطرة على هذا السلوك ، وإن كنا لم نعرفها فلا نحصل إلا على ما يسمى السلوك غير المفهوم .

هذه هى — بصورة عامة — المبادئ الأولى فى علم النفس ، ومن استعراضها يظهر لنا بأن التجربة أصبحت الأساس الفنى لتنظيم الدوافع والعوامل والسيطرة عليها . لذلك فإن فهمنا يزداد وإنتاجنا يغزر كلما :

١ — رتبت الدراسات بشكل يسمح للدوافع والحوافز بأن تعمل بكل قواها لتجنب الانهماك بأجزاء صغيرة من العلاقات موضوعة البحث .

٢ — ونظمت الدراسات على أساس اتصال العوامل والحوافز واشتراكها .

٣ — وأعطى اهتمام أكثر سواء عند وضع تصميم التجربة وتنظيم المبادئ ، أو عند المباشرة فى الدرس والبحث ، إلى المبادئ التشابكة وتوافقها مع البيانات الإيضاحية . وذلك بدلا من إشاعة الاضطراب والفوضى فى البحث باستعمال الأساليب التقليدية التى تخضع الكائن الحى لآراء متنوعة بدلا من إخضاعه للطرق البيانية المستمدة من الوقائع والتجارب .

وهناك مسألة أخرى — تجابهنا فى حقل الدراسات النفسية لمشاكل الطفل — وهى اختلاف قابليات النمو ، واختلاف الأعمار وتأثيرها على الآراء والتجارب ، ثم درجة وطبيعة التغير بالنسبة لهذه الاختلافات فى الأعمار والقابليات .

تأثير الكائن الحى على البيئة :

يجب أن ينظر إلى الطفل فى أية لحظة من اللحظات كنموذج خاص ، أو كنظام تركيبى مشغول فى مواجهة البيئة الخارجية ، وكلما تحرك إلى الأمام مع الزمن ، فإن علاقاته بالعالم الخارجى تتعدد

فى جانب منها بانفعالياته الخاصة ، فإن الأطفال يختلفون اختلافاً كبيراً من ناحية الذكاء ، والقابلية الموسيقية ، والقدرة الإنتاجية ، والقابلية الإحساسية ، والأحوال البيئية . فإذا أمكن ترتيب الأساليب حسب ما يمكن قياسه من هذه الخصائص مفردة ومجتمعة ، فإنه يمكن فيما بعد تسجيل وتحديد وتعميم الإنجازات الفردية التى لوحظت بدرجات متقاربة .

ولكن هذه الملاحظات جميعها قد أجريت — وهذا مما يؤسف له فى قياس الذكاء — مع أنه ليس هناك مايمنع من توسيع هذه القياسات لتتناول مجالات أخرى غير دراسة الذكاء وقياسه ، إذ أن مواضيع علم النفس المقارن كتلك التى تتناول الفروق الجنسية والعنصرية من الممكن أن تؤدى إلى وضع تعميمات نافعة جداً إذا أمكن تصنيف الجماعات فى المراحل الأولى وتتبع ذلك دراستهم دراسة مثمرة . ومثل هذه الدراسات الآن غير كاملة تماماً لاختلاطها بالتأثيرات الطبيعية الكثيرة المزدحمة .

ولهذا ، ففى هذه الناحية يستعمل الفرد كنشاط متطور مستقل تام ، أو ينظر إليه كبيئة نفسية يقوم هو نفسه ببنائها .

## تأثير البيئة على الأثر الفنى :

يقوم المجتمع عن طريق إرشاد وتدريب الأطفال بتكييف البيئات التى ينمو بداخلها الطفل ، فالعالم يهتم بتكييف البيئات تكييفاً تجريبياً مقصوداً لاستكشاف المبادئ الرئيسية والإجراءات العملية التى يمكن استعمالها فى تعليم وتدريب الأطفال .

وهنا تجابهنا مواضيع كثيرة تتعلق بالأسلوب المنتج الذى يمكن الاستفادة منه فى التعليم والتدريب — كيف يحدد مستوى المناهج ؟ ما هى المواد التى يجب أن تدرس فى الجغرافيا مثلا ؟ وهل الصور المتحركة والصور الحركية تساعد فى تحسين نوعية التعليم؟ إن الدراسات التى تتناول تكييف البيئة تشتمل فى بعض الأحيان على دراسة العوامل والبواعث الموجهة كل على انفراد ، بينما تشتمل فى ظروف أخرى على دراسة نماذج معقدة جداً من قوى النشاط . ومن الواضح بأن التصميم التجريبى يتألف من تصنيف جماعات من الأطفال كل جماعة تتميز بعامل من العوامل موضوعة البحث ، ويؤخذ بهذه الطريقة ، لأن دراسة عوامل وبواعث بسيطة أسهل من تناول بحث يتألف من عناصر متشابكة ومتداخلة . وعلى كل يجب أن لا نفترض بأن جميع المشاكل فى هذا المجال تتمركز فقط حول مثل هذه العوامل والبواعث ، إذ الحقيقة أن العامل الفرد ذا التأثير الواحد يعتبر حالة محددة من طرف واحد ، وأن البيئة مع كل تأثيراتها تعتبر حالة محددة من طرف آخر . ولذلك فإن هدفنا النهائى يتناول جميع العلاقات البيئية فى جميع درجات الاشتباك والتعقد ، فإن كافة البحوث فى هذه الدراسات تنتهى بتعميم يعبر عنه باصطلاحات عددية ، وبفروض تنبؤية ، وبتحديدات معينة تطبق على الجماعات والأفراد .

إن مهمة علم النفس فى الماضى كانت تنحصر فى جمع إنجازات السلوك والرجوع إلى الوراء للبحث عن العوامل السببية .

وهكذا يقارن تحت ظل هذا النوع من الدراسة بين الأطفال الحاذقين وغير الحاذقين ، وبين الحسودين وغير الحسودين ، وفى هذه الدراسات كذلك يعتبر « النموذج » النتيجة النهائية . وعلى كل فإنه إذا حصل تقدم فى معارفنا عن الطفل ، فإن البيئة يجب أن تصبح ظاهرة مستقلة متطورة ، ويصبح السلوك نشاطاً متحولا غير مستقل ، وذلك بشكل يمكننا أن نتعرف على السلوك من دراسة البيئة لا التعرف على البيئة من دراسة السلوك . ولكن هناك فى هذه الناحية صعوبات عديدة ، فقد قام العالمان شيرمان وهنرى ( ١٩٣٣ ) باختيار ستة بيئات متفاوتة حسب قربها وبعدها من المدنية ، ثم قاسا بعد ذلك ذكاء الأطفال ، وفى النهاية فشلا فى الوصول إلى نتائج واضحة قاطعة من وجهة نظر التصميم الفنى . ويعود سبب هذا الفشل إلى حقيقة أن أية بيئة توجد لمدة طويلة من الزمن ستجرب إخضاع أفرادها إلى نوع من التأثير البيولوجى الانتقائى . ولكن إذا ماوزعت سلفاً البيئات التى تختلف اختلافاً جوهرياً فيما بينها ، ثم وزع الأطفال عليها توزيعاً متناسباً يمكن بواسطته السيطرة على العامل البيولوجى الانتقائى ، فإنه يمكن الحصول على نتائج هامة .

وقد أمكن الحصول على تعميمات عديدة حول تأثير النظام والإدارة على الأطفال من دراسة الأطفال العاديين ومن شرح حالات البيوت التى يجىء منها الأطفال وشرح خصائص جيرانهم ومعارفهم . وعلى كل فإذا أمكن ملاحظة نماذج من البيوت